



MIDDLE EAST RESEARCH AND STUDIES

Source : AN-SAHAR
Date : 16-1-98
Photo No. : 178

مع زولا، ضد غارودي

بقلم سمير قصير

تشاء الصدف ان يتزامن الاحتفال بمئوية "اتي اتمم"، مقال الكاتب الفرنسي اميل زولا الذي شكل منعطفاً في "قضية دريفوس" بل وفي تاريخ الفكر السياسي الاوروبي، مع تعيئة للمثقفين العرب لم نشهد لها مثيلاً منذ اعوام عدة بداعي الدفاع عن روجيه غارودي.

كان يمكن الصدف ان تكون ارحم لنا. او كان يمكن المثقفين العرب ان يكونوا اكثر رافة بأنفسهم فلا يعرضون سمعتهم، المتدهورة منذ زمن، لبهذلة جديدة في الوقت الذي يستنكر العالم فيه اللحظة التأسيسية لدخول المثقفين حلبة الصراع السياسي بوصفهم مثقفين ليس الا، اي ما اعتبر بناية تبلور مفهوم "المثقف الملتزم".

لا تأتي البهذلة من الصورة التي يعطيها اولئك المثقفون عن العرب في الغرب. فالغرب لا يتتظر هفواتنا حتى يعادينا ويحتقرنا، وان يكن صار يجدر بنا، بعد مئة عام على انطلاق المشروع الصهيوني ونصف قرن على اقامة دولة اسرائيل بحملة "الوعي المعذب" الاوروبي، ان ننتبه احياناً الى الاستعمال الذي تخضع له صورتنا في الخارج. لا، البهذلة تنبع من تنلسي المثقفين عننا ابسط الموجبات. ويكفي اصلاً انهم لم ينتسبوا الى خطورة التزامن بين تحركهم والاحتفال بذكرى اميل زولا حتى يستحقوا البهذلة.

مرة اخرى، ليست المشكلة في علاقتنا مع الغرب او في الصورة التي سيكونها عنا هذا الغرب بسبب تفافلنا لحظة من تاريخه. اما المشكلة هي في علاقتنا مع تراث ليس بعيداً، تراث المثقفين العرب انفسهم الذين نهلوا من الثقافة الفرنسية اكثر من غيرها قيماً ومثلاً وأنماطاً من العمل كان اميل زولا القدوة فيها. اكثر من ذلك، يمكن للذهاب الى ان فئة "المثقفين العرب" ما كانت لتتشكل لو لم

تستند الى مفهوم "المثقف الملتزم" الذي جسده زولا خلال دوره في "قضية دريفوس" وفي ما بعد جان بول سارتر. وليس أدل على هذا التأثير الا الاستقبال الحار الذي لقيه ادوارد سعيد في العالم العربي وفي بيروت تحديدا عندما سعى الى احياء صورة المثقف الملتزم اخلاقيا، وفق مواقف المفكر الفرنسي جوليان بندا.

والمثقف الملتزم في هذا المنظر هو الذي لا يخشى ان يتحدى جمهوره او ان يخرج عن الصورة الرسمية لـ"مصلحة الامة". وهو الذي يقاوم الحمية القومية عندما تكون في نظره على تضاد مع الحقيقة او مع الحق. هنا ما فعله زولا بتصديه لقيادة الجيش الفرنسي زمن كانت التعبئة القومية ضد الالمان في ذروتها في فرنسا. وهذا ما فعله جان جونييه وسارتر وغيرهما زمن حرب الجزائر، متحدين انماطاً من العصبية القومية اين منها دعوات الرئيس رفيق الحريري اليوم الى التزام نوع من الوطنية المالية او الاستثمارية يفترض فيها ان تسقط كل مبررات المعارضة.

بالطبع، لا مجال للمقارنة بين التعبئة العربية المنشودة في وجه المشروع الصهيوني وشحن النفوس بالمشاعر القومية في دول قوية كان همها التفوق على جيرانها في التسابق الاستعماري. فنحن، بما لا يحتمل اللبس، في معسكر الضحايا، وأذا كان لا بد من البحث عن مرادفين مباشرين لزولا وسارتر فإنه يجب البحث عنهم في المعسكر الاخر، أي في اسرائيل. والحق يقال اننا نجد عند العدو من يلعبون فعلا هذا الدور، واسماؤهم اسرائيل شاحك وديفيد غروسمان واموس عوز وتوم سيغيف وغيرهم من المنكبين على فضح التزوير في الرواية الاسرائيلية وفي الدفاع عن الحق الفلسطيني. لكن كوننا في معسكر الضحايا لا يعفيانا من واجب اليقظة، على العكس تماما. فثمة شيء اسوأ من لاخلقية الجلاذ وهو لاخلقية الضحية. وهذا في المناسبة تحديدا ما نأخذ على اليهود الذين اتضوا تحت لواء الصهيونية فتحولوا من ضحايا الى جلاذيين.

لم يتحول العرب جلاذيين، اللهم الا بين بعضهم البعض، وما زالوا في سياق الصراع العربي - الاسرائيلي الطرف الذي يتلقى الضربات. لكن بعضهم، رغم ذلك، لا يضع نفسه عند قراءته التاريخ في تواصل مع ضحايا آخرين في الامس، وانما يلتحق، ولو فقط فكراً، بمنطق ساد بين الجلاذيين في ماض غير بعيد. ان لا بد من الاعتراف، ان لم تكن نريد ان نخادع انفسنا، ان الوعي العربي المميمن حيال مسألة ابادته اليهود على يد النازيين ما زال يراوح بين التشكيك في حقيقة هذه الابداء والاسف من عدم اكمالها. بل لعله تراجع في العقد الاخير مع تراجع الفكر اليساري الذي شكل في هذا المجال دافعاً لاستيطان قيم كونية، من بينها معاداة العنصرية، كل عنصرية، بما فيها تلك التي استهدفت وتستهدف اليهود بوصفهم يهوداً. وما هو التراجع يبلغ ذروته اليوم مع هذه الحملة للتضامن مع روجيه غارودي.

انها حملة حمقاء لانها تجهل معطيات القضية التي تسعى الى التدخل فيها، ولا تأبه بشخصية من تريد اعلان التضامن معه، اي غارودي. لا يكفي ان يكون غارودي متعاطفاً مع العرب حتى يصبح جديراً بالاحترام، وليس التضامن مع ضحايانا شرطاً وافياً حتى يستدرج تضامناً تلقائياً من طرف العرب. ومن يعرف منظومة جمعيات الصداقة العربية - الاوروبية يدرك انهما تضم، الى مناضلين ينتصرون للحق العربي لانه حق، عدداً من

الانتماليين، سواء كانت انتماليتهم سياسية او مالية. وغارودي ليس بالتأكيد من الصف الاول، فقد تقلب في المواقع الايديولوجية بما فيه الكفاية حتى نتأكد ان استقامة الرأي ليست من صفاته. وهو، الى ذلك، ليس هذا الديموقراطي المنبؤ دوماً، فعندما كان المنظر الرسمي الاساسي للحزب الشيوعي الفرنسي، قرن اتفاحه على الكنيسة الكاثوليكية مع تصرف ستاليني حيال مثقفين آخرين في الحزب، وعلى رأسهم لويس التوسر. وأذا كان يطيب له ان يصور اعتناقه الاسلام كتنويع لمسيرة روحية، فان علاقاته المتتالية مع عدد من الانظمة العربية التي لا يرتاح لها اي من المثقفين المتضامنين معه اليوم كقيلة الغاء ضوء آخر على مسيرته المادية.

لكن اهمال الشبهات التي تحيط بشخصية غارودي يبقى اهنون من تجاهل سياق القضية المرفوعة امام القضاء الفرنسي وخلفياتها. فاذا كان صحيحاً ان في فرنسا والغرب عموماً ايديولوجيا سائدة جعلت من المحرمات مناقشة موضوع ابادته اليهود بشكل علمي، فالصحيح ايضاً ان دعاة التشكيك في حقيقة الابداء وحجمها لا يفعلون ذلك بدافع المناقشة العلمية. وهم، في معظم الاحوال من غلاة اليمين المتطرف او من مناصري ما سمي "اليمين الجديد" الناعي الى تمايز الحضارات. والاهم ان التشكيك بالمحرقة النازية صب في نهاية المطاف في خانة التطرف الايديولوجي اليميني الذي يستهدف اليهود والعرب في آن واحد. ولا يهمن هنا ان كان غارودي شخصياً براء من هذا العداء للعرب، فهو يعرف قبل غيره لمصلحة من يعمل المشككون الذين انحاز اليهم بنشره كتابه عن دار "لا فياي توب".

لا يتوقع بالتأكيد من كل المثقفين العرب معرفة كل تفاصيل الحياة الثقافية والسياسية في فرنسا، وان يكن يجدر بهم عدم الخوض في موضوع يجملون حيثياته. ولكنه يتوقع منهم ان يكونوا ادركوا اخيراً ما يفيد في مقارعة الدعاية الصهيونية وما لا يفيد. وما لا يفيد هو أولاً مجارة الرأي العام في نظرة تأمرية للتاريخ ما زالت ترى في "بروتوكولات حكماء صهيون"، هذا النص الزائف، خلفية الصراع العربي - الاسرائيلي. وما لا يفيد ثانياً هو الابحاث ان حجم ابادته اليهود على يد النازيين يؤثر في تبرير العدوان الاسرائيلي. فحتى لو فاق عدد الضحايا اليهود في الحرب العالمية الثانية رقم الملايين الستة، وحتى لو بلغ عشرة ملايين او اكثر، فان ذلك لا يبطل الحق العربي في فلسطين.

ويبقى الاخطر، اي التخلي عن الحس النقدي. ليس المثقف الملتزم من يخوض معارك آخر ساعة. المثقف الملتزم، وبإزاء الصراع العربي - الاسرائيلي، هو اليوم من يسعى الى رؤية للسلام تزواج بين الحق العربي والامر الواقع في تاريخ عمره نصف قرن. المثقف الملتزم هو من يقول ان الملايين الستة هم شهداء يشهدون على جريمة الغرب وانما نجل ذكراهم قبل غيرنا، فلا نقبل ان يصحوا ذريعة لاغتصاب حقنا. بهذا فقط نكون امينين لتراث من النخوة لرساه اميل زولا قبل مئة عام وعمل به اسلافنا قبل ان يدهمنا الافلاس.

سمير قصير